

نهر النسيان !!

للأستاذ محمود مسمي اسماعيل

براقبة الثقافة العامة

أَسْقَيْتَنِي مِنْ خَمْرَةِ النَّسْيَانِ ! وَأَنْسِيَانِي فَقَدْ نَسِيتُ زَمَانِي !
وَنَسِيتُ الشَّبَابَ وَالسَّحَرَ وَالْأَحْلَامَ وَالْفَنَّ وَالرُّؤْيَ وَالْأَغَانِي
وَنَسِيتُ الْمُنَى وَكَانَتْ شُعَاعًا بَاهَتْ الظِّلُّ حَائِرًا فِي جَنَانِي
وَنَسِيتُ الْأَسَى وَكَانَ رِيحًا أَزَجَّتِ الْجَنُّ خَطُورَهَا فِي كِيَانِي
وَنَسِيتُ الْأَيَّامَ حَتَّى تَلَاشَتْ كَهَشِيمٍ عَلَى تُرَابِ الزَّمَانِ
وَنَسِيتُ الْأَنْعَامَ رِعَاشَةَ الشَّدِّ وَحَيَارَى حَزِينَةِ الْعِيدَانِ
وَنَسِيتُ الدُّمُوعَ وَهِيَ أَغَانِ أَخْرَسَتْهَا زَوَابِعُ الْأَحْزَانِ
غَرَدَاتُ السُّكُونِ مَخْنُوقَةُ اللَّحْنِ تَشَاجَتْ بِسِحْرِهَا أَجْفَانِي !
وَنَسِيتُ الْجَمَالَ حَتَّى كَأَنِّي لَمْ أَضْمَحْ بِنُورِهِ الْحَيَانِي
فَنَسِيتُ الْعَبِيرَ وَالزَّهْرَ بِذِكْرِهِ بِفَجْرِ الطَّبِيعَةِ النَّعْسَانِ
وَنَسِيتُ النَّدَى وَقَدْ كَانَ خَمْرًا لَبَنِي الطَّيْرِ لَمْ تُرَقِّ فِي دِنَانِ
وَنَسِيتُ الْأَنْسَامَ تَنْقُلُ فِي الْمَرِّ جِ صَلَاةَ الطُّيُورِ لِلْغُدْرَانِ

وَنَسِيتُ النُّجُومَ وَهِيَ عَلَى الْإِفْئِقِ نَشِيدٌ مُبَعَثٌ الْأَوْزَانِ
وَنَسِيتُ الرِّيحَ وَهُوَ نَدِيمُ الشَّجَرِ وَالطَّيْرِ وَالْهَوَى وَالْأَمَانِ
وَنَسِيتُ الْخَرِيفَ وَهُوَ صَبَابًا مَا تَفْسِجَتْ شَبَابُ الْأَغْصَانِ
وَنَسِيتُ الظَّلَامَ وَهُوَ أَسَى الْأَرْضِ وَتَابُوتُ شَجْوَاهَا الْحَيْرَانِ
وَنَسِيتُ الْأَكْوَاخَ وَهِيَ قُلُوبٌ دَامِيَاتٌ تَلَفَعَتْ بِالْإِدْخَانِ
وَنَسِيتُ الْقُصُورَ وَهِيَ قُبُورٌ ضَا حَكَاتُ الْبَلَى مِنَ الْبُهْتَانِ
وَنَسِيتُ النِّعَمَ وَالْبُؤْسَ ... مَاذَا تَرَكَ لِي مِنْ شِقْوَةٍ أَوْ أَمَانٍ ؟
وَنَسِيتُ السَّلَامَ وَالْحَرْبَ ... سَيِّئًا نِ شَذَى النُّورِ أَوْ لُطَى الْبُرْكَانِ !
وَنَسِيتُ الْهُدُوءَ وَالضَّجَّةَ الْهُوْءَ جَاءَ ، سَيِّئَانِ سَكْتِي أَوْ بَيَّانِي !
وَنَسِيتُ الْكَلَامَ ... مَاذَا جَنَى الْمُصْغَى إِلَيْهِ سَوَى بَقَاءِ اللِّسَانِ ؟
وَنَسِيتُ السُّكُونَ وَهُوَ عَزِيفٌ أَبَدِيٌّ الصَّدَى ، أَشَلُّ الْمَثَانِي ...
وَنَسِيتُ الْحَيَاةَ وَهِيَ رَمَادٌ نَفَخَتْ ذَرَهُ يَدُ الشَّيْطَانِ
وَنَسِيتُ الْفَنَاءَ وَهُوَ بِحَسْمِي هَادِمٌ يَرْصُدُ الْفَنَاءَ لِبَانِي !
وَنَسِيتُ النَّسْيَانَ وَالذِّكْرَ حَتَّى صُرْتُ وَهْمًا فِي خَاطِرِ النَّسْيَانِ .
وَتَجَرَّدْتُ مِنْ زَمَانِي وَكَوْنِي لَزَمَانٍ مُحَجَّبٍ عَنْ عِيَانِي ..
وَإِذَا نِي فِي قَفَرَةٍ أَلْقَتِ الصَّمْتَ عَلَيْهَا صَوَامِعُ الرُّهْبَانِ

خَاصَمَ الدَّهْرُ لَيْلَهَا .. فَهِيَ دَهْرٌ مَارَاتُهُ سَرِيرَةٌ الْأَصْكَوَانِ
 وَلَوَى الْجِنُّ خَطْوَهُ عَنْ ثَرَاهَا فَهِيَ حَتَفٌ لِكُلِّ إِنْسٍ وَجَانِ
 لَا ظِلَامٌ، وَلَا ضِيَاءٌ، وَلَكِنْ غَيْبٌ حَائِرٌ عَلَى الْكُثْبَانِ
 لَا سَكُونٌ، وَلَا ضَجِيجٌ، وَلَكِنْ هَمَمَاتٌ تَلْغَطُنُ فِي وَجْدَانِي
 جَبَتْ فِيهَا حَيْرَانٌ أَقْدَفُ نَفْسِي فِي خِصْمٍ مُغِيبٍ الشُّطْرَانِ
 وَإِذَا أَشْيَبَ يَغْمَغِمُ كَالْمَجْنُونِ بَيْنَ السُّهُولِ وَالْوُدَيَانِ
 شَعُودَتُهُ السَّمَاءُ فَهوَ خِيَالٌ يَتَزَا بِصُورَةِ الْإِنْسَانِ
 آدَمُ الرِّدَاءِ أَذْهَلُ الْوَهْمِ ! وَغَشْتُهُ هَبْلَةُ الْحَيَوَانِ !
 نَقَشَ الْعَنَكُوتُ فَوْقَ مُحِبٍّ هُ ظَلَالًا مِنْ صُفْرَةِ الْأَكْفَانِ
 مَقْلَتَاهُ بَثْرَانِ دَلَّوْهُمَا الظَّنُّ أَوْغِيَانِ فِي الدُّجَى تَائِهَانِ !
 وَيَدَاهُ لِقَامَةُ الزَّمْرِ الْأَعْرَجِ عُكَّازَتَانِ مَشْدُوخَتَانِ
 ضَمَّ إِحْدَاهُمَا وَلَوْحَ بِالْآخِرَى لَوَادٍ مُخَدَّرٍ نَعْسَانِ
 فِيهِ نَهْرٌ مِنَ الدُّمُوعِ، وَجَبُّ مَتَرَعٍ بِالْأَنْبِيِّ وَالْأَشْجَانِ !
 وَقُلُوبٌ أَقْلَهَا بَيْنَ جَنِيهِ سَفِينٌ يَجْرِي بِلَا رَبَّانِ
 وَأَهْلَاتُ مُجْرَحَاتٍ، حَزَانِي مَرْقَتَهَا فَوَاجِعُ الْأَزْمَانِ ..
 بَيْنَهَا ثَاكِلٌ، وَآخِرُ شَجَّتِهِ يَدٌ لِلْأَسَى بَغِيرِ سِنَانِ

وَشَقِيَّ يَسُوقُهُ نَحْسُ دُنْيَا هُ إِلَى مَرْفَأِ شَقِيَّ الْمَكَانِ
 وَيَتِيمٌ ، وَبَائِسٌ ، وَغَرِيبٌ وَشَرِيدٌ مُقَطَّعُ الْأَرْسَانِ
 وَمُنَادٍ دَعَا الْأَمَانِي فَصَدَّتْهُ وَعَادَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ الْأَوَانِ
 وَحَبِيبٌ أَرَدَتْهُ فِي لَهَبِ الْأَسْقَامِ وَالشَّهْدِ صَرَعَةُ الْحَرَمَانِ
 وَطَعْنٌ بِخَنْجَرِ الظُّلْمِ بَاكَ دَفَنْتُ نَوْجَهُ يَدُ الطُّغْيَانِ
 أَرَعَشْتَنِي السَّفِينُ ! وَاسْتَلَبَ الْأَشْيَبُ دَعْيِي ! .. رَبَّاهُ مَاذَا دَهَانِي ؟
 فَتَهَادَيْتُ كَالْهَشِيمِ عَلَى أَشْلَاءِ رُوحِي الْمَفْنَعِ الْأَسْيَانِ
 ثُمَّ نَادَيْتُهُ ، فَاْمَعَنَّ فِي الصَّمْتِ قَلِيلًا ... وَصَاحَ بِي : مَنْ دَعَانِي ؟
 قُلْتُ : رُوحٌ مُعَذِّبٌ : قَالَ : مَنْ أَيْنَ ؟ ! فَقُلْتُ : الْآسَى إِلَيْكَ رَمَانِي
 عَلَنِي اسْتَقَى الْهُدُوءَ وَالْقَى بَيْنَ كَفِّكَ رَاحَةَ السُّلُوفِ !
 قَالَ : أَقْبِلْ ... فَكَمْ بِدُنْيَاكَ صَرَخِي شَرِبُوا مِنْ يَدِي رَحِيقَ الْخَنَانِ !
 فَتَلَا شَتَّ دُمُوعِهِمْ ... أَرَأَيْتَ الشَّكَّ تُبْلِيهِ ثَوْرَةُ الْإِيمَانِ !
 وَاسْتَطَارَتْ شَجُونُهُمْ ... أَرَأَيْتَ الطِّيفَ تَطْوِيهِ هَبَّةُ الْوَسْنَانِ !
 قُلْتُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : رُؤْيَا خِيَالٍ كُلُّ حَيٍّ عَلَى الْوُجُودِ رَأْنِي !
 أَنَا مَعْنَى فِي خَاطِرِ الْغَيْبِ ذَابَتْ حَوْلَ أَسْوَارِهِ جَمِيعُ الْمَعَانِي
 أَنَا كَهْفٌ مُغْلَفٌ فِي حَشَا الدَّهْرِ يَشْعُ الْفَنَاءُ مِنْ جُذْرَانِي

غَلَّغْتُ فِي ثَرَايَ دُنْيَا الشَّقِيَّينَ ، وَلَاذَ الْوُجُومِ فِي أَرْكَانِي
 وَارْتَمَتْ حَوْلِي الْحُطُوطُ التَّعْيِسَا تُ ، وَنَامَ الْعَذَابُ فِي أَحْضَانِي
 مَدْفَنٌ لِلْخُطُوبِ وَلِي ، وَمَنْفَى أَبَدِي لِنَكْبَةِ الْحَدَثَانِ
 أَنَا طَبُّ الْأَيَّامِ أَشْفَى جَرَّاحًا تِ الزَّمَانِ الْمُرْزَأُ اللَّهْفَانِ
 أَنَا بَحْرُ الْهَدُوءِ مِنْ مَلِّ دُنْيَا هُ رَمَى عِبَاهَا عَلَى شُطَاتِي
 مِنْذُ مَا دَبَّتِ الْخَلَائِقُ حَوْلِي لَقَبْتَنِي السَّاءُ « بِالنَّسِيَانِ » !
 فَتَسَيْتُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ مَا أَدْرِي أَحْيَى أَنَا هُنَا أَمْ فَإِنْ !
 مَرَّ بِي « آدَمُ » قَدِيمًا فَأَوْمًا تِ إِلَيْهِ بِطَرْفِ هَذَا الْبَنَانِ
 فَسَقَى قَلْبُهُ مِنَ النَّهْرِ كَأْسًا وَتَلَاشَى عَنْ أَعْيُنِي فِي ثَوَانِ
 وَإِذَا بِي أَرَاهُ يَهْتِكُ سِرَّ الْخُلْدِ فِي غَيْرِ هِدَاةٍ أَوْ تَوَانِ
 مَالٍ بِالذَّوْجَةِ الَّتِي قَدَسَ اللَّهُ جَنَاهَا ... فَلَمْ تَلْهَا يَدَانِ
 وَجَنَى مِنْ ثَمَارِهَا هَذِهِ الدُّنْيَا وَأَحْدَاثُ هَذِهِ الْأَكْوَانِ
 عَبَّ خَمْرِي فَأَذْهَلْتَهُ عَنِ الْغَيْبِ وَأَقْصَيْتَهُ عَنِ ظِلَالِ الْجَنَانِ
 لَيْتَهُ لَمْ يَذُقْ رَحِيقِي ، وَلَمْ يَهْرَعْ لِنَهْرِي ، وَلَمْ يُطَاوِعْ بَنَانِي
 أَنَا سِرُّ الْوُجُودِ ! مَنْ رَامَ سِرِّي نَسِيَ الْحَشَرَ قَلْبُهُ فِي جَنَانِي
 قُلْتُ يَا حَادِيَ الْخَطَايَا لِقَبْرِ مَرَدَّتْ رُكْنُهُ بِدُ الْغُفْرَانِ

يَا هَوَايَ الَّذِي تَهَافَتُ بِالرُّوحِ عَلَيْهِ وَبِالْحِجَا وَاللَّسَانِ
 أَيْنَمَا سِرْتُ جَرَّ طَيْفُكَ أَحْلَا مِي، وَمِنْ نَهْرِكَ الْمُصَنِّفِ سَقَانِي
 مِنْذُ مَا جِئْتُ لِلتَّرَى وَأَنَا صَبُّكَ.. فَارْحَمْ عِبَادَتِي وَافْتِنَانِي!
 مَزَقْتَنِي أَشْوَاكَ دُنْيَايَ وَاعْتَنَا لَتَ شَبَابِي وَأَزَعَجْتَ الْحَيَا
 الْهَوَايَ وَالنَّشِيدُ يَرْعَاهُمَا اللَّهُ . بَيْتِهِ الْخُلُودُ قَدْ ضَيَّعَانِي
 تَرَكَانِي أَهِيمُ كَالْعَاصِفِ الْمَشْدُودِ فِي كُلِّ بُقْعَةٍ وَمَكَانٍ
 لَا ذَا عُمْرِي بِشَاطِئِكَ فَدَعْنِي فِي ثَرَاكَ الْغَرِيبِ أَدْفِنْ زَمَانِي
 فَتَمَطَّي.. فَزَلْزَلِ الْأَرْضَ تَحْتِي وَطَوَى الصَّمْتِ فِي الْفَلَا إِذْ طَوَانِي!!

محمود محمد اسماعيل